حول المعالم الدينية في تونس قبل الاسلام

فتحـــي البجـــاوي

يَعْسُر من خلال هذا التقرير السريع، تقديم كل النتائج التي توصلنا إليها في السنين الأخيرة بالنسبة للآثار المسيحية.

فقد تَمَكَّنَّا من خلال الحفريات المبرمجة وحفريات الانقاذ مع الاكتشافات العفوية من تغيير خارطة الآثار المسيحيّة بتونس كليّا.

ونظرا لضيق الوقت فإن النّص النّهائي الذي سينتشر بمناسبة هذا المُلْتَقَى سيشمل كل التفاصيل والتحاليل لهذه النتائج. لذا أستسْمِحُكُم الايجاز في إبراز أهم النتائج التي أفضت إليها مجهودات المؤسسة الساهرة على الآثار (المعهد القومي للآثار والفنون) وبالخصوص مركز دراسة الحضارة الكلاسيكية والآثار الرومانية البيزنطية الذي أُسِّسَ سَنة 1982 داخل المعهد وهو يسهر على دراسة وإنقاذ وعرض كل الآثار الراجعة إلى هذه الفترة من تاريخ بلدنا.

وأتمنى أخيرا أنّ هذا العرض سيؤكد لكم أهمية الآثار المسيحية بتونس التي حضيت بكل الاهتمام رغم الامكانيات المحدودة لمعهدنا بالنسبة لكثافة الآثار في كامل أنحاء بلادنا ولكامل العصور.

أريد أوّلا التذكير بأن العمل متواصل بصفة حثيثة بقرطاج حيث تُشْرِفُ السيدة L. Elnabli على الطّور الأخير من حفرية كنيسة تقع قرب المغازة الكُبْرَى لهذه الضّاحية.

ويبدو أنّ هذا المعلم الذي استُعْمِل حتى بداية القرن السادس الميلادي يشمل صدرين وستة أجنحة وموضع التعميد مع بعض الفروع. وقد نَشَرت السيدة Elnabli نقيشة تُبرِز أَنَّ هذه الكنيسة كانت كاتدرائية (Cathédrale).

ويجب التذكير بأنّ هذه الباحثة تشرف أيضا على حفرية أُخْرى بمعلم مسيحي غربي هضبة l'odeon.

وتتعدد الاكتشافات والحفريات داخل الجمهورية وأهمها :

ـ برزت بمدينة الكاف Sicca veneria أو شقبنرية سابقا بتغيير جزء من الحمامات الرومانية وبالتحديد القاعة الباردة (Frigidarium) إلى كنيسة متواضعة لم تكشف الحفرية من أجزائها حتى الآن سوى بيت الكاهن، فسيفساء الأرضية ثلاث كبلاطات جنائزية، ونقيشة جنائزية مرمرية لقس شيد قبره أمام مدخل بيت الكاهن.

ـ بـ Mustis الكريب حاليا، قرب دقة، شرعنا في إعداد دراسة كنيسة تشتمل على ثلاث بلاطات وإحدى عشرة مسكبة، وقد اكتشفها السيد عز الدين باش شاوش قرب القلعة البيزنطية. وقد عرفت هذه الكنيسة فترتين يمكن تأريخهما خاصة على ضوء تحليل فسيفساء القاعة الأساسية، كما لاحظنا استعمال قطع من المرمر صغيرة الحجم داخل حوض التعميد مستدير الشكل.

أما بمنطقة مدينة قفصة حاليا أو Capsa قديما وقرب القطار بموقع يدعى الطلح اكتشفنا أخيرا كنيستين متجاورتين.

يتقدم الباب الرئيسي للكنيسة الأولى مدخل بارز ويشتمل هذا البناء على ثلاث بلاطات وأربع مسكبات تفصل بينهما أعمدة من الحجارة الصغيرة التي يربط بينها ملاط صلب.

أمّا صدر الكنيسة فهو مرتفع بالنسبة لبقية المعْلم. وتتميّز الكنيسة الثانية التي ظهرت جزئيا من جراء الأعمال الفِلاحية باستعمال الرخام من (أعمدة ـ الركائز الهياكل) وتشمل ثلاثة أجنحة وستةَ مسكبات.

أما في الوطن القبلي بمنطقة الحمامات Pupput قديما وإثر بناء أحد النُزل تمكنًا من إنقاذ عدة لوحاة من الفسيفساء الجنائزية، كانت تغطي أرضية كنيسة مسيحية وقرب مدينة Asadi، سيدي الجديدي حاليا، انتصبت كنيستان على هِضبتين متجاورتين. وقد عرَفَتْ كلتاهما فترتين :

اتسمت فسيفساء الكنيسة الأولى بزخرفة ذات أشكال هندسية أو زهرية (Floraux) كما تتميز هذه الكنيسة بنقيشة وُجدت أمام المذبح Aurel يبدو مضمونها مستوحى من التوراة ولا يزال المَعْلَمانِ الآخران تحت الدّراسة.

اما مدينة Ulizippira (هنشير زمبرة) قرب مدينة سوسة فقد وقع العثور على كنيسة جنائزية (Basilique Funéraire) أظهرت العديد من الفسيفساء الحاملة لنقائش جنائزية لم نتمكن إلى حد الآن من فَهْم احداها وهي التي كُتِبَت وَسَطَ ايقونة مستديرة الشكل.

بعد هذا التقديم السريع لآخر الاكتشافات للمعالم المسيحية بتراب الجمهورية، أريد في الجزء الثاني من هذا العرض تسليط الأضواء على بعض المعالم التي اشرفتُ شخصيا على درسها وهي : كنيستان بمدينة شمتو (Simitthus) بالشمال الغربي للبلاد وثلاثة قرب مدينة Lrptis Minor لمطة حاليا بمنطقة الساحل وبالتحديد بهنشير السكرين. وتتميز هذه الكنيسة بالعدد الكبير من لوحات الفسيفساء التي تغطي بلاطها اما الكنيسة الأخيرة فهي تقع ببين سعيدان قرب بلدة سجنان بالشمال التونسي، بين مدينتي بنزرت وطبرقة فَلِنَبْدأ أولا بِن سعيدان (سجنان).

يبعد بِن سعيدان (وهو اسم ولي صالح دفن بهذا المكان) حوالي مائة وثلاثين كلم من تونس وقرابة الستون كلم من مدينة طبرقة Thabraca قديما.

ونجد بالأطلس الأثري لتونس (Atlas Archéologique de la Tunisie)اشارة سريعة إلى استعمال بعض المواد الأثرية في مبنى الولي الصالح بن سعيدان.

تم سنة 1983 اكتشاف معلم رأى البعض فيه كنيسة جامعة. واتضح بعد مواصلة الخفريات أنه حمام روماني. وبالقرب من هذا المعلم، وعلى حوالي عشرة أمتار جلب انتباهنا مكان منخفض يُدعى بئر (النصارى) من طرف سكان المنطقة وتمكنّا من العثور في هذا المكان على حوض عِمادي لم يبق منه سوى ثلاثة فصوص مزخرفة بفسيفساء تمثل صليبا علق به حرفان اغريقيان Alpha-Omega ولاحظنا وجود (ظغراء المسيح) في أعلى جدار الحوض. كما كشفت الحفرية حول هذا الحوض، فسيفساء موضع التعميد التي تمثل بعضها كؤوسا (كنتاريوس) تحيط بها طيور منها الطاؤوس. وزخرف البعض الآخر بأشكال نباتية منها الدّالية ولا تزال حفرية الكنيسة متواصلة حتى الآن وقد تأكدنا من أن أرضيتها كانت مغطاة بفسيفساء ذات أشكال هندسية.

شمتو :

تقع مدينة شمتو Simitthus قديما على حوالي عشرين كيلومترا غربي مدينة بولاريجيا (Bulla Riegia) وتقع على طريق قرطاج عِنّابة (Hippone la Royale) وشقة بنرية (Sicca Veneria) طبرقة (Thabraca)، تمكنت الحفريات التونسية الألمانية من اكتشاف مَعْلَمين. وأثبتت الأسبار التي أجريناها بالمعلم الأول المشيد، قرب الساحة العمومية (Forom) نّه سوق يشبه سوق مدينة Bulla Regia المجاورة وليس كنيسة كما ظنّ البعض حتى الآن. اما المعلم الثاني اعتبره البعض مبنًى قضائيا رومانيا حُوِّل خلال الفترة المسيحية إلى كنيسة. ويجب مواصلة الدراسة للتحقُّق من هذا الافتراض.

وتم أخيرا اكتشاف كنيستين. تقع الأولى غربي (معلم الرخام) والثانية على قمة جبل شمتو المشهور بمرمره الأصفر والوردي :

- تستند الكنيسة الأولى إلى هضبة وتجدر الاشارة إلى أن جانبها الجنوبي مقطوع في الصخر وتشمل ثلاثة أجنحة وستَّ مسكبات تفصلها أعمدة لم تبق منها سوى قاعدتها المرمرية.
- ندخل إلى القاعة الأساسية من خلال ثلاثة أبواب ومدخل بارز ويوجد أخيرها عند صدر المحراب ويبدو حسب البحوث الأولية أن الخورس (Choeur) يقع في المسكبة الرابعة. اما المذبح فهو يفصل فسيفساء الخورس إلى لوحتين، وخلافا للكنائس الافريقية الأخرى، لا يشمل هذا المعلم الأ على حُجرة اضافية واحدة مخصصة عادة إلى رجال الكنيسة.
- ازدانت أرضية الجناح المركزي بفسيفساء تمثل صلبانا مزدوجة تتعاقب واشكالا هندسية كما نلاحظ وجود طيور وشجيرات.
- وقد عثرنا على مستوى المسكبة الأولى على ضريحين انتصبت الكنيسة الثانية داخل معبد الاله الروماني ساتورنيوس (Saturne) على قمة جبل شمتو. وقد شُيِّد الجرادان الشمالي والجنوبي داخل المعبد القديم.
- تشمل الكنيسة ثلاثة أجنحة وخمس مسبكات ويقع الوصول إلى القاعة الأساسية عن طريق مدرج في الناحية اليُسرى لهذه الكنيسة. ويرجع هذا المدرج إلى الفترة الأولى من استعمال هذا المعلم.
- لقد هُدِم صدر الكنيسة ويبدو أن المذبح قد انتصبَ في المسكبة الرابعة، وقد أحاطت به فسيفساء تمثل صلبانا متزاوجة.

هنشير سكرين :

بضواحي مدينة Leptis Minor لمطة حاليا، وقرب الموقع الذي اكتشفت فيه العديد من النقائش الجنائزية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وقع اكتشاف كنيسة في السنوات الأخيرة، وتُعَدُّ هذه الكنيسة التي يتجاوز ارتفاع جدارنها حاليا الخمسين سم، من المعالم جيدة الحالة.

- ندخل هذه الكنيسة من باب من الجهة الجنوبية الغربية لا يتجاوز عرضه المتر وثمانية عشر سم.
- تنقسم القاعة الأساسية التي يبلغ طولها أربعةِ عشر مترا وخمسة عشر سم إلى ثلاثة أجنحة تفصلها دعائم تخللت آثارها فسيفساء البلاط، وحسب الرسوم يبدو أن عرض الدعائم يبلغ خمسين سم ولاحظنا في هذا البناء بعض الشذوذ في العديد من أجزائه نذكر منها مثلا تضييق البلاطة المِحورية (جناح الوسط) قرب صدر الكنيسة أو اختلاف العرض بالنسبة للجانبين. عدد المسكبات خمسة، يتراوح عمقها بين عشرين وثمانية عشر سم والمترين والأربعة والثلاثين سم.

- صدر الكنيسة يبلغ المترين وتسعين سم من العمق وهو مرتفع بالنسبة لمستوى المعلم وهو يفصل بين بيت الكاهن والغرف الاضافية ومثبت العماد يتمد الموقع الخاص بالكهنة على ثلاث مسكبات والنصف وليس من الغريب ان هذا الموقع يرجع إلى فترة ثانية من استعمال الكنيسة. وسنتمكن بعد إنهاء الخفرية من الاجابة عن العديد من التساؤلات المطروحة.

الغرفة الفرعية ومثبت العماد :

شيدت غرفتان فرعيتان على جانبي صدر الكنيسة بينهما رواق يَمرُّ خلف بيت الكاهن وتجدر الاشارة إلى عرض جدار الغرفة الجنوبية الغربية الذي يبلغ المتر والعشرة سم عوضا للخمسة والستين سم بالنسبة للجدران الأخرى ويبدو أنَّه يمثل دعامة مثلما هو الشأن للعديد من الكنائس الافريقية. قصر الأحمر ـ حيدرة وThelepte مع العلم أن العدد الوفير من القراميد وجدت على كامل مساحة كنيسة السكرين تدل على أن القبو الطولي شيد بالنسبة للغرف المذكورة أعلاه فقط. أما البقية فقد كانت مغطاة بسقف من القراميد، تلتصق بالغرفتين الفرعيتين غرفتان استعمل جزء من الغرفة الجنوبية الغربية منها صهريجا أو حوضا، ثم كقبر أو ضريح في فترة متأخرة.

وجد مثبت العماد في موقع مربع بين هاتين الغرفتين ويمكن الوصول إليه من الجهة الجنوبية الشرقية أو الشمالية الشرقية عن طريق رواق يمر وراء بيت الكاهن يشمل الحوض العمادي الموجود وسط القاعة ثمانية قويسات شيد باثنين منها مدرجين ويحمل جداره من الناحية الداخلية نقيشة من فسيفساء في حالة رديئة جدا لكنها مرتبطة بمركب التعميد مثلما يبرز من الكلمتين Fontes وBatisma كما تحمل القويسات صلبانا لاتينية صغيرة الحجم.

الزخرف :

انتشرت الفسيفساء على كافة أطراف المعلم وهي في غالب الأحيان جيدة الحالة الجناح الأساسي (جناح الوسط) زخرف بصلبان مزدوجة، بأشكال هندسية صغيرة الحجم. كما حملت ايقونة مستديرة الشكل صورة خروف. وتتخلل هذه الفسيفساء، التي تحمل العلامات العديدة لترميم قديم بعض الأضرحة، وزخرف صدر الكنيسة بكأس (كنتاريوس) بين أيلين، تتدلى من الكنتاريوس دالية عنب وتتفرع إلى رصائع تحمل صور طيور.

ونجد زخرفا آخر بقسم من الجانب الأيسر يتمثل في غُضَينيات أقنشة وطوير وفواكه وزخرف الجانب الأيمن بحلقات متشابكة تحمل عناقيد عنب، وأسماكا وطيورا.

ونرى أمام الباب الشمالي الغربي لمثبت العماد صورة خرفوين تحيط بصليب يتدلى منه حرفان اغريقيان Alpha Omega وحجلتان. كما تفرقت صور لطيور أخرى وأزهار في أنحاء اللوحة وزخرفت الجهة المقابلة بأشكال أخرى : ايلان عوض الخروفين ـ وكؤوس (الكنتاريوس) تتدلى منها عناقيد عنب.

النقائش الجنائزية وزخرف الأضرحة :

اثنتان وثلاثون نقيشة جنائزية انتشرت بكافة أنحاء الكنيسة حتى داخل الصهريج، كما ذكرناه سابقا، وتتجه أغلبها إلى الجنوب الغربي ما عدى وراء صدر الكنيسة أو بالصهريج وذلك حسب المساحة المتوفرة. دُفِن الكهان (الكهنة) ونائبو الكهان – وعددهم سبعة – بصدر الكنيسة أو بقربها الّا في حالتين – الكاهن Tribunus دفن بالصهريج و Basilius أمام الواجهة، تتكون اللّوحات المغطية لهذه الأضرحة من أجزاءٍ ثلاثة مثلما هو معهود بتونس. أو من جزئين فقط. كتبت النقيشة الجنائزية في إطارٍ مستطيلِ الشكل ويتمل الرّمز في تاجٍ أو اكليل أو رصيعة، تحمل صليبا محاطا بِيَمامَتين – أو بخروف زهري (نباتي) أو هندسي ونجد في بعض الأحيان في أسفل اللوحة كأسا (كنتاريوس)، وفي بعض الأحيان نجد النقيشة الجنائزية داخل إطار متكون من غُصَيْنَات أقنشة.

ولاحظنا أخيرة نقيشة داخل اطار محاط بعصافير. وقد وضعت خطوط تحت سطور النقيشة في غالب الأحيان وحُدِّدَ البعض منها بسطور سميكة متعددة الألوان في حالة أخرى.

سيدي الرئيس، سيداتي سادتي،

إنه من العسير، نظرا لأهمية وتنوع الاكتشافات التي عرضتها بسرعة، الوصول إلى استخلاص نتائج ضافية خاصة، وأن العديد من المعالم لا يزال تحت الحفر أو تحت الدراسة – لكن تجب الاشارة إلى أن خارطة الآثار المسيحية قد تغيرت كليا – كما ذكرت سابقا – خلال هذه السنوات السِتّ الأخيرة.

ومع اقراء الجغرافيا الاكليرسية، سنتمكن بعد إنهاء كل الدراسات من تغيير تواريخ الفسيفساء المسيحية. كما ستمكننا دراسة النقائش الجنائزية من ابراز معلومات جديدة غير معروفة حتى الآن.